هوامش

ذكريات الاتحاد السوفييتي ما زالت تثير كثيراً من الغموض والحنين في الوقت عينه، خصوصاً حقبة الحرب الباردة وما رافقتها من تهديدات نووية متبادلة مع الولايات المتحدة

لم يُكتب لستالين أن يجلس على مكتبه في المخبأ (العربي الجديد)

مخبأ ستالين

ملجأ القيادة السوفييتية في الحرب الباردة

موسكو ـ **رامي القليوبي**

على بعد مئات الأمتار من محطة مترو «تاغانسكايا»، وسط العاصمة الروسية موسكو، ثمة بناية محصنة يطلق عليها اسم «المخبأ - 42» أو «متحف الحرب الباردة» وشهرتها «مخبأ ستالين»، صممت كمقرّ للقيادة العسكرية والسياسية في عهد الزعيم السوفييتي الراحل جوزيف ستالين (1878 - 1953)، على عمق 65 متراً تحت سطح الأرض تحسباً لخطر الهجوم النووي. وتشمل الجولة بالمخبأ التي تنظم للزائرين الروس والأجانب، والتي اختبرها مراسل «العربي الجديد»، تفقد نقطة التفتيش للدخول، والقاعة المصممة كمكتب لستالين. ومن اللافت أنّ الزعيم السوفييتي لم يكتب له القدر أن يدخل مكتبه، إذ إنّ المخبأ لم يتم تشغيله إلّا في عام 1954، أي بعد وفاته بعام.

وفي عامي 1955 و1956، جرت في المخبأ عملية نشر المعدات وإقامة الاتصالات مع أفواج الطيران الاستراتيجي في جميع أنحاء البلاد، بينما تولت وزارة الاتصالات السوفييتية عملية نقل البيانات الحكومية والعسكرية المشفرة داخل الاتحاد السوفييتي وبلدان حلف وارسو المعادي لحلف الناتو. واستخدمت إحدى قاعات المخبأ كمقر لقيادة الطيران الاستراتيجي لثلاثة عقود، بما في ذلك أثناء أزمة الكاريبي في عام 1962، حين كان العالم على حافة حرب عالمية ثالثة باستخدام السلاح النووي.

رفع السرية

ونشبت أزمة كوبا بعد شروع موسكو بإرسال صواريخ بالستية إلى الجزيرة الكاريبية القريبة من الولايات المتحدة في خريف 1962، رداً على نشر حلف الناتو صواريخ أميركية في تركيا، ولم يجرِ احتواؤها إلّا بعد موافقة الزعيم السوفييتي آنذاك، نيكيتا خروتشوف، على سحب الصواريخ من «جزيرة الحرية» مقابل سحب الصواريخ الأميركية من تركيا. وكان المخبأ يتسع لـ600 شخص كانوا في حالة التأهب لشنّ ضربة نووية في حال أمرت القيادة السوفييتية بذلك. واستمرت قيادة القاذفات الاستراتيجية الحاملة للأسلحة النووية من «المخبأ - 42» حتى عام 1986، حين أدركت القيادة السوفييتية أنّ المخبأ الذي أنشئ في الخمسينيات لم يعد قادراً على التصدي للأسلحة الحديثة.

وبعد رفع السرية عن المخبأ، تم تحويله إلى «متحف الحرب الباردة»، الذي يمكن لزائريه أن يعيشوا أجواء تلك الفترة البعيدة، حين كانت أكبر قوتين نوويتين، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، على وشك الصدام النووي. ولزيادة واقعية التجربة، يمكن لزائري المخبأ الجلوس في مقعد المتحكم في عمليات إطلاق الصواريخ النووية، لكن مع الحظر التام على التقاط صور أثناء ذلك، كما يسمعون دويّ صفارات الإنذار والضربات الصاروخية. ويمكن لزائري المخبأ أيضاً الاطلاع على نموذج لأول قنبلة نووية سوفييتية ووسائل نقل القنابل النووية، وغرفة استراحة الضباط، وحتى تناول وجبة الغداء بالمطعم الكائن على هذا العمق.

وحتى لا يفقد زائرو المكان البوصلة بين دهاليزه، يرافق مرشد سياحي تابع للمتحف المجموعات ويشرح لأفرادها تاريخ أبرز المعالم، ملتزماً بكمامة طبية لمنع انتقال العدوى بفيروس كورونا الجديد في الظروف الراهنة. وفي غياب مصعد مخصص للزائرين، تصبح الجولة في «مخبأ ستالين» بالطابق الـ18 تحت الأرض تمريناً رياضياً مفيداً، أو اختباراً قد يراه البعض صعبا لهبوط السلالم وتسلقها على القدمين.

بناء المخبأ

بدأ تصميم بناية «مخبأ ستالين» بعد تطوير الولايات المتحدة قنبلة نووية، وانطلقت أعمال بناء المخبأ في عام 1950. ولم يتم تحديد العمق بـ65 متراً صدفة، بل بناء على الاختبارات النووية التي أجريت في الاتحاد السوفييتي في عام 1949. وعند اختيار موقع المخبأ تمت مراعاة العوامل، مثل القرب من الكرملين حتى يتمكن ستالين وحكومته من الوصول إليه على وجه السرعة لتولي قيادة الدولة والجيش في ظروف الحرب النووية.

ولم تكن عملية إنشاء المخبأ سهلة، إذ وقعت على عاتق البناة مهمة صعبة لتشييد بناية ضخمة وسط موسكو من دون إلحاق ضرر بالمرافق، مع الحفاظ على سرية الأعمال بعيداً عن أيّ عيون محتملة للاستخبارات الأجنبية.

ومن الطريف أنّ معهد «مترو برويكت» المتخصص في تصميم مترو موسكو، هو الذي أعد مشروع المخبأ نظراً لخبرته في إجراء التصاميم للمنشآت على أعماق كبيرة. وأثناء التجول بدهاليز المخبأ، يمكن سماع أصوات قطارات مترو أنفاق العاصمة الروسية النابضة بالحياة، إذ تقع المنشأة بالقرب من خطوطه.

باختصار

من اللافت أنّ ستالين لم يكتب له القدر أن يدخل مكتبه، إذ إنّ المخبأ لم يتم تشغيله إلّا في عام 1954، أي بعد وفاته بعام

■■■

في عامي 1955 و1956، جرت في المخبأ عملية نشر المعدات وإقامة الاتصالات مع أفواج الطيران الاستراتيجي في جميع أنحاء البلاد

■■■

استمرت قيادة القاذفات الاستراتيجية الحاملة للأسلحة النووية من «المخبأ - 42» حتى عام 1986

وأخيراً

في ذكرى رحيل المستبدّة

رشا عمران

تجمع صورةٌ أم كلثوم مع محمد عبد الوهاب، فيها حلة طعام كانت بين يدي الست، ويبدو أنها كانت تأكل من الحلة مباشرة بيدها. الصورة عفوية جدا وجميلة، ولا تختلف عن صورة أخرى مع عبد الوهاب أيضا، تبدو فيها تغنّي، وهو يمسك ما قد تكون أيضا حلة فارغة، استخدمها لضبط الإيقاع في أثناء غناء أم كلثوم. وهناك صورة أخرى تبادلتها صفحات «فيسبوك»، كتب عليها «أم كلثوم في البنطلون»؛ كما لو أن ارتداءها البنطلون أمر فائق الاستثناء، والحقيقة أن الاستثناء هو ظهورها به، فهي دائما في صورها ذات مواصفات محدّدة: فستان سواريه مع أقراط ثمينة في الحفلات، أو مانطوه أنيق ونظارة سوداء غالبا ما كانت ترتديهما في سفرياتها لإحياء حفلاتها الغنائية.

ثمّة عديد من هذه الصور العفوية لأم كلثوم، يتبادلها محبّوها، لا بوصفها من صور المشاهير المعتادة في ذلك الزمن أو هذا، بل بوصفها صور الست فقط، والست لقب تكريمي وتعظيمي في ذلك الزمن، يحيط صاحبته بهالةٍ كبيرةٍ لا يسمح باختراقها، وهو ما كان يميز أم كلثوم فعلا، فهي لم تكن مطربةً عاديةً مثل مطربات جيلها، لا صوتها الخارق ولا حدسها الفني ولا جوقة الموسيقيين العظماء الذين رافقوا مسيرتها، ولا حتى حياتها الشخصية التي بقيت محصّنة قدر الإمكان عن الإعلام، يجعل منها مطربةً تشبه مطربات ذلك الزمن أو غيره، ولا يمكن حتى إطلاق لقب الأسطورة عليها.

الأسطورة شيء لا يحدث، وهي كانت شديدة الحدوث والوضوح والحضور، إلى درجة بقائها، حتى اللحظة، كما لو أنها مكتشفة للتو، حتى اللقب الذي عرفت به، كوكب الشرق، سخيف ولا يناسبها، فهي ليست سماويةً أبدا، وليست شيئا لا يمكن الوصول إليه. هي أرضية وحسّية جدا، وابنة البيوت والحواري والغيطان والمقاهي الشعبية، والقصور الأرستقراطية والنوادي، ابنة الأهل وابنة أبنائهم وصديقة يومية للحبّبية والمتلفين من العشق والهجر والفقد. هي ابنة الأرض بكل ما فيها، غير أن هذا الاقتراب والحضور الطاغي جعلا من كل ما يتعلق بها حالة شبيهة بحالة صاحب السلطة الأعظم. كان صوتها سلطة، سلطة عظيمة حقا، مستبدّا وطاغيا، ولا يمكن النيْل منه، أو حتى التفكير بالنيْل منه. تحكي سيرتها عن محاولات جرت في الصحف الفنية ذلك الوقت لتشويهها، لكن ما حدث أن أصحاب تلك المحاولات طواهم الزمن بصرّة نسيانه، وقلما يذكرهم أحد إلا في سياق حياتها، بينما بقيت هي كما لو أنها هرم رابع يعجز حتى الزمن عن إزالة حجرٍ واحد فيه. هذه السلطة الطاغية غالبا هي ما جعل حتّى من رحيلها لا يشبه رحيل مشاهير آخرين، إذ حسب مقال لبلال فضل عنها أنها رحلت في أوروبا في رحلة علاجها الأخيرة، وعادت إلى مصر «جثة بلا روح»، بيد أن الحكومة المصرية أجلت إعلان وفاتها أكثر من مرة. كانت الحكومة تسرّب أخبارا عن تدهور صحتها كما لو أنها تريد تدريب جماهيرها على سماع خبر صاعق، من دون أن يسبب لهم صدمة قد تفجر البلد. وهذا إجراء لا يحدث عادة إلا مع موت الزعماء الاستبداديين في دول العالم الثالث. كانت زعيمةً بصوتٍ مستبدٍّ سيطر على جمهورها الكبير في كل الوطن العربي، لكنه أجمل استبداد على وجه الأرض، غير أنه الاستبداد الذي يكشف عقلية (MENTLITY) الشعوب التي تعيش في هذا المنطقة التي تبحث عن زعماء أرضيين، طالما من في السماء عصيٌّ على الرؤية والمسك، كما لو أنها في لاوعيها تريد بدائل أرضية. علاقة شعوبنا مع «الزعماء والقادة» استبدالية، مع أي سلطة، حتى لو كانت سلطة صوت كصوت الست العظيم.

> الأسطورة شيء لا يحدث، وأم كلثوم كانت شديدة الحدوث لدرجة بقائها كما لو أنها مكتشفة للتو

تمر هذه الأيام ذكرى رحيل الست. أتذكّر وأنا طفلة أننا كنا نسمعها في بيتنا مساء كل يوم، على إذاعة دمشق. ويقول الأصدقاء إن إذاعة إسرائيل كانت تبث لها أيضا أغنية يومية (إسرائيل تسرق حتى اللحظات الحميمية للعرب). حفظتُ أغنياتها من دون أن أنتبه، وتعلقت بها من دون أن أنتبه. كانت أمي تحبها جدا، لا سيما أغنية «حلم»، كانت تغنيها دائما بصوتها الجميل، وأنا أسترق السمع لها بسعادة مطلقة. ظهيرة ذات يوم شتوي من عام 1975، كان الراديو مفتوحا، وعلى غير العادة بثت الإذاعة مقطعا من رباعيات الخيام لأم كلثوم. أذكر أن أمي توترت، وقالت: «له بس ما تكون ماتت؟». أوقفت الإذاعة البث، وأعلنت عن رحيل الست أم كلثوم المستبدّة العظيمة.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**